

"هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره- من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

The "Ha" of the Absent Pronoun and its Impact on Directing the Meaning: Tabari Exegesis from Sura Al-An'am to Sura Al-Isra.- As a model-

د. جمال بوكو*

جامعة الجزائر1.كلية العلوم الإسلامية، مخبر الشريعة، الجزائر
d.boukou@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2021/06/12 تاريخ القبول: 2021/06/20 تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص :

إن مسائل عود الضمير في القرآن الكريم من أهم المسائل التي لاقت عناية واهتماما بالغاً عند المفسرين، إذ من شروط المفسر أن يكون عالماً باللغة العربية، لأن الضمير إذا عاد إلى أكثر من عائدٍ، فإن تحديد المعاني يختلف باختلاف تعيين عائد الضمير، والضمائر في القرآن الكريم كثيرة، لذا جاءت دراستنا هذه في المساهمة ولو بشيء يسير في جمع ما تنأثر من هذا الموضوع في كتب التفسير، فوقع الاختيار على تفسير "جامع البيان في تأويل القرآن" لابن جرير الطبري، في توجيه معاني عود الضمير في "هاء" الغائب، كما تطرقنا إلى ذكر أقوال المفسرين كالعكبري، و ابن عطية، و السمين الحلبي وغيرهم، مع مناقشة الأقوال من غير تطويل، ثم بيان رأي الباحث في كل مسألة من مسائل عود الضمير المطروحة في البحث، من خلال نماذج مختارة من سورة الأنعام إلى سورة الإسراء .

الكلمات المفتاحية : هاء الضمير الغائب وأثرها؛ توجيه معاني القرآن؛ الطبري في تفسيره؛ من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا .

Abstract :

The issues of the attributive pronoun in the Holy Qur'an are among the crucial points that have received due attention among Qur'anic commentators. One of the conditions of a commentator is to be scholastic in the Arabic language for if the pronoun reference has multiple attributions, the definition of the meanings will vary according to the attributed pronoun. As the Attributed pronouns the Noble Qur'an are numerous and varied, this present study will contribute in collecting the scattered issues on this topic from the books of Qur'anic exegetes, namely, Jarir Al Tabari's "Jami'e Al Bayan fi Tafseer Al Qur'an with an emphasis on the 'ha' as discussed previously. This article will highlight and discuss the interpretations of Al Samin Al Halabi and others without going in depth. The article will conclude with a statement of our opinion on the attributive pronoun with a case study from Sura Al An'am to Sura Al Isra .

المقدمة :

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا نَدَّ لَهُ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ، مَبْشَرًا وَنَذِيرًا، وَهَادِيًا إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . أَمَا بَعْدُ :

فقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ هَدَايَةٌ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝١﴾ [يونس: 09]، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كِتَابٌ تَدَبَّرْ وَتَمَعَّنْ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ يَقُولَ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٢٨﴾ [النساء، الآية: 82].

ومما يعين على فهم معاني آيات القرآن الكريم، معرفة اللغة العربية وأسرارها، فإن القرآن نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٢٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٢٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝١٢٥﴾ [الشعراء، الآية: 192، 193، 194، 195].

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

ومن المسائل اللغوية التي اعتنى بها العلماء قديما وحديثا، مسألة عود الضمير، وبحثنا¹ هذا يتناول "هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره. - من سورة الأنعام إلى سورة الإسراء. أنموذجا-، وبحسب اطلاعنا المحدود -والله أعلم- لم نجد من تطرق إلى هذا البحث بتصنيف مستقل، لذا يصب بحثنا في جمع ما تنافر في هذا الموضوع، مقتصرًا على نماذج مختارة في دراسة تطبيقية. ولقد استغنيتُ عن ذكر تعريف الضمير والوقوف على ترجمة ابن جرير الطبري، لأنّ هذه المباحث ذكرت من قبل في المقالات السابقة.

إذن ما أثر عود الضمير في توجيه معاني القرآن عند ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره؟ وهل كان يرجّح بقاعدة من قواعد الضمير؟ وهل لهذا التوجيه أثر في اختلاف المفسّرين؟

¹ سبق لي أن نشرتُ دراستين في هذا الموضوع، ولكن المضمون مختلف. الدراسة الأولى صدرت في مجلة [المجمع الجزائري للغة العربية] ع.29، السنة 16، شوال 1440هـ- الموافق جوان 2019م. بعنوان: عود الضمير: هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-أواخر سورة البقرة نموذجا [من الآية 170 إلى الآية 280]-. والدراسة الثانية: سيصدر في مجلة [المجمع الجزائري للغة العربية] بعنوان: عود الضمير: هاء الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره -سورة آل عمران، والنساء، والمائدة. أنموذجا-

أولاً : نماذج تطبيقية لهاء الضمير الغائب من سورة الأنعام إلى سورة الاسراء :

1/ قال الله تعالى : ﴿وَلَئِكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٤ ﴿٨٥﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ٨٥ ﴿٨٦﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ [الأنعام، الآية: 84-85-86].

موضع الشاهد : ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعود إلى نوح عليه السلام لأنه أقرب مذكور ويقتضيه دلالة السياق فقال رحمه الله : «﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾، و"الهاء" التي في قوله : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ من ذكر نوح، وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطاً فقال : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، ومعلوم أن لوطاً لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وإذا كان ذلك كذلك، وكان معطوفاً على أسماء من سمي من ذريته، كان لا شك أنه لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم²، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون "الهاء" في "الذرية" من ذكر نوح».

يرى الإمام الرأزي أن ضمير "الهاء" في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعود إلى "نوح عليه السلام" معللاً أنه ذكر من جملتهم لوط وإسماعيل ويونس عليهم السلام وكلهم من ذرية نوح عليه السلام فقال رحمه الله : «﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ فقيل : المراد ومن ذرية نوح، ويدل عليه وجوه الأول : أن نوحاً أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب. الثاني : أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته، بل كان من ذرية نوح عليه السلام، وكان رسولاً في زمان إبراهيم. الثالث : أن ولد الإنسان لا يقال إنه ذريته، فعلى هذا إسماعيل عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم، بل هو من ذرية نوح عليه السلام. الرابع: قيل إن يونس عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكان من ذرية نوح عليه السلام»³.

² عَقِبَ على الطبري « بأنه يحتمل أن يكون أراد: ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة،» ينظر: أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.1، 1422 هـ/ج 50/2.

³ أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط.2، ج 52/13.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

قيل ضمير "الهاء" في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعود إلى إبراهيم عليه السلام بمعنى من ذرية إبراهيم داود وسليمان لأن «إبراهيم هو المقصود بالذكر في هذه الآيات وإنما ذكر الله تعالى نوحا لأن كون إبراهيم عليه السلام من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم»⁴. قال السمين الحلبي: «"الهاء" في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ فيها وجهان، أحدهما: أنها تعود على "نوح" لأنه أقرب مذكور، ولأن "إبراهيم" ومن بعده من الأنبياء كلهم منسوبون إليه. والثاني: أنه يعود على "إبراهيم" لأنه المحدث عنه والقصة مسوقة لذكره وخبره، ولكن رُدَّ هذا القول بكون لوطٍ ليس من ذريته»⁵.

من خلال ما سبق يمكن الترجيح بأن عود الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ يعود إلى نوح عليه السلام بناء على قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور، ولا حاجة إلى تقدير، قال ابن كثير رحمه الله: « وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أَي: وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الْآيَةَ، وَعَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى "نُوحٍ"؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ، ظَاهِرٌ. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَلَا إِشْكَالَ عَلَيْهِ. وَعَوْدُهُ إِلَى "إِبْرَاهِيمَ"؛ لِأَنَّهُ الَّذِي سَبَقَ الْكَلَامُ مِنْ أَجْلِهِ حَسَنٌ، لَكِنْ يُشْكِلُ عَلَى ذَلِكَ "لُوطٌ"، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَّةِ "إِبْرَاهِيمَ"، بَلْ هُوَ ابْنُ أَخِيهِ مَا دَانَ بْنِ آزَرَ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ دَخَلَ فِي الذَّرِّيَّةِ تَغْلِيْبًا»⁶، -والله أعلم-.

2/ قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَّتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَعْصُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام، الآية: 110].
موضع الشاهد: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ يعود التقلب الذي في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَّتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ قال رحمه الله: «قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، دليل على محذوف من الكلام وأن قوله: ﴿كما﴾ تشبيه ما بعده بشيء

⁴ أبو عبد الله محمد بن عمر، الملقب بفخر الدين الرّازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.3، 1420هـ، 52/13.

⁵ أبو العباس شهاب الدين، المعروف بالسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج.27/5.

⁶ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط.2، 1420هـ - 1999م، ج.3/297، 298.

قبله، وإذا كان ذلك كذلك فالواجب أن يكون معنى الكلام: ونقلب أفئدتهم، فنزيغها عن الإيمان، وأبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبل مجيئها مرة قبل ذلك، وإذا كان ذلك تأويله، كانت "الهاء" من قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ كناية ذكر "التقليب" ⁷.

ذكر ابن الجوزي احتمالات أخرى لعائد الضمير ﴿بِهِ﴾ فقال رحمه الله: «وفي "هاء" ﴿بِهِ﴾ أربعة أقوال. أحدها: أنها كناية عن القرآن. والثاني: عن النبي ﷺ. والثالث: عما ظهر من الآيات. والرابع: عن التقليب» ⁸.

أما الإمام الرّازي فيرى جواز عود الضمير إلى القرآن أو إلى النبي ﷺ أو إلى ظهور الآيات فقال رحمه الله: «وأما الكناية في ﴿بِهِ﴾ فيجوز أن تكون عائدة إلى القرآن أو إلى محمد عليه الصلاة والسلام، أو إلى ما طلبوا من الآيات» ⁹. وهنا نجد الإمام الرّازي أنه لم يذكر الأمر الرابع وهو احتمال عود الضمير إلى "التقليب".

واستبعد أبو حيان عود الضمير إلى التقليب [الذي رجّحه الإمام الطبري] فقال أبو حيان رحمه الله: «والضمير عائدة على الله، أو القرآن، أو الرسول، أقوال وأبعد من ذهب إلى أنه يعود على التقليب» ¹⁰.

ووافق السمين الحلبي على ذلك فقال رحمه الله: «و"الهاء" في ﴿بِهِ﴾ تعود على الله تعالى، أو على رسوله، أو على القرآن، أو على القلب المدلول عليه بالفعل، وهو أبعد» ¹¹. يظهر لي -والله أعلم- أن الضمير ﴿بِهِ﴾ يعود إلى التقليب بناء على قاعدة عود الضمير إلى المذكور أولى من إعادته إلى مقدر، وهو الذي رجّحه الإمام الطبري.

⁷ تفسير الطبري، ج 45/46.

⁸ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 2/67.

⁹ أبو عبد الله محمد بن عمر، الملقب بفخر الدين الرّازي، مفاتيح الغيب، ج 13/52.

¹⁰ أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج 4/618.

¹¹ السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج 111/5.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

3/ قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة، الآية:34].
موضع الشاهد: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ يعود إلى الذهب والفضة، ولكن مع تفصيل في ذلك، فقد ذكر احتمالين الأول يعود إلى المكنوزات ويدخل فيها الذهب والفضة، أو يعود إليهما مع استغناء ذكر أحدهما فمعنى الكلام يكتزون الذهب و الفضة و لا ينفقون المكنوز فقال رحمه الله: «فإن قال قائل : فكيف قيل : ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فأخرجت "الهاء" و"الألف" مخرج الكناية عن أحد النوعين. قيل : يحتمل ذلك وجهين :

أحدهما : أن يكون "الذهب والفضة" مرادًا بها الكنوز، كأنه قيل: والذين يكتزون الكنوز ولا ينفقونها في سبيل الله، لأن الذهب والفضة هي "الكنوز"، في هذا الموضع.
والآخر: أن يكون استغنى بالخبر عن إحداهما في عائد ذكرهما، من الخبر عن الأخرى، لدلالة الكلام على الخبر عن الأخرى مثل الخبر عنها، وذلك كثير موجود في كلام العرب وأشعارها»¹².

رجَّح أبو حيان عود الضمير إلى الذهب وأجاز عوده إلى المذكورات الأخرى فقال رحمه الله: «والضمير في : ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾، عائد على الذهب، لأن تأنيثه أشهر، أو على الفضة، وحذف المعطوف في هذين القولين أو عليهما باعتبار أن تحتكما أنواعا...أو لأنهما محتويان على جمع دنائير ودراهم، أو على المكنوزات، لدلالة يكتزون، أو على الأموال، أو على النفقة وهي المصدر الدال عليه»¹³.

¹² تفسير الطبري، ج14/228.

¹³ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج5/412.

يوضح السمين الحلبي أكثر فيقول : « **﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾** تقدّم شينان وعاد الضمير على مفرد فقيل: إنه من باب ما حُذِفَ لدلالة الكلام عليه، والتقدير: والذين يَكْتَنُزُونَ الذهب ولا يُنْفِقُونَهُ. وقيل: يعود على المكنوزات ودل على هذا جُزْؤُهُ المذكور؛ لأنَّ المكنوزَ أعمُّ من النقديّين وغيرهم، فلمّا ذَكَرَ الجزءَ دلَّ على الكل، فعاد الضميرُ جمعاً بهذا الاعتبار... وقيل : الضميرُ يعودُ على الذهب لأن تأنيثه أشهر، ويكون قد حُذِفَ بعد الفضة أيضاً. وقيل : يعودُ على النفقة المدلول عليها بالفعل... وقيل : يعودُ على الزكاة أي : ولا ينفقون زكاة الأموال. وقيل : يعودُ على الكنوز التي يدل عليها الفعل»¹⁴.

بعد ذكر أقوال أهل العلم يظهر لي أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: **﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾** يعود إلى الفضة باعتباره أقرب مذكور، ويجوز عوده إلى المعنى المفهوم من **﴿يَكْتَنُزُونَ﴾** لأنه أعم يشتمله قال الزركشي: «وَقَوْلُهُ **﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** أَعَادَ الضَّمِيرَ عَلَى الْفِضَّةِ لِقُرْبِهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِلَى الْمَكْنُوزِ وَهُوَ يَشْمَلُهَا»¹⁵.

4/ قال الله تعالى: **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾** [التوبة، الآية: 36].

موضع الشاهد: **﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾**

اختلف العلماء في تحديد عائد الضمير **﴿فِيهِنَّ﴾** هل يعود إلى قوله تعالى: **﴿إثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾** أم يعود إلى قوله تعالى: **﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾**؟ الإمام الطبري ذكر القولين ورجّح عود الضمير **﴿فِيهِنَّ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾**، بحجة أنه أقرب مذكور، ومعتمداً أيضاً على ما ورد من كلام العرب فقال رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في الذي عادت عليه "الهاء"، و"النون" في قوله: **﴿فِيهِنَّ﴾**»¹⁶.

ثم رجّح فقال رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولٌ من قال: فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظّم حرمتها، وإنما

¹⁴ السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج42/6-43.

¹⁵ أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ-1957م، ج4/31.

¹⁶ تفسير الطبري، ج14/238.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

قلنا: ذلك أولى بالصواب في تأويله، لقوله: ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ﴾، فأخرج الكناية عنه مُخْرَج الكناية عن جمع ما بين الثلاثة إلى العشرة، وذلك أن العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة، إذا كُنْتُ عنه: "فعلنا ذلك لثلاث ليال خلون، ولأربعة أيام بقين"، وإذا أخبرت عما فوق العشرة إلى العشرين قالت: "فعلنا ذلك لثلاث عشرة خلت، ولأربع عشرة مضت" فكان في قوله جل ثناؤه: ﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، وإخراجه كناية عدد الشهور التي نهى المؤمنين عن ظلم أنفسهم فيهن مخرج عدد الجمع القليل من الثلاثة إلى العشرة، الدليل الواضح على أن "الهاء والنون"، من ذكر الأشهر الأربعة، دون الإثني العشر. لأن ذلك لو كان كناية عن "الإثني عشر شهراً"، لكان: فلا تظلموا فيها أنفسكم¹⁷.

ثم بين الإمام الطبري رحمه الله تعالى أن عود الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ إلى الأربعة الأشهر الحرم لا يدل بالضرورة على جواز الظلم فيما دونها من الأشهر وإنما خصهن الله تعالى تعظيماً لهنّ وتشريفاً فقال رحمه الله: «...ولكن الله عظم حرمته هؤلاء الأشهر وشرفهن على سائر شهور السنة، فخصّ الذنب فيهنّ بالتعظيم، كما خصّهن بالتشريف، وذلك نظير قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [سورة البقرة، الآية: 238]، ولا شك أن الله قد أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضة كلها بقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾، ولم يبح ترك المحافظة عليهن، بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى، ولكنه تعالى ذكره زادها تعظيماً، وعلى المحافظة عليها تأكيداً وفي تضييعها تشديداً. فكذلك ذلك في قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمَ ذَلِكَ الدِّينَ الْقِيَمَ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾¹⁸.

قال الفرّاء: «قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ ولم يقل (فيها)، وكذلك كلام العرب لما بين الثلاثة إلى العشرة تَقُولُ: لثلاث ليال خلون، وثلاثة أيام خلون إلى العشرة، فإذا جُزّت العشرة قالوا: خلت، ومضت. ويقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة (هنّ) و (هؤلاء) فإذا جُزّت العشرة قالوا (هي، وهذه) إرادة أن تعرف سمة القليل من الكثير، ويجوز في كل واحد ما جاز في صاحبه»¹⁹.

¹⁷ المصدر نفسه، ج 240/14.

¹⁸ تفسير الطبري، ج 240/14.

¹⁹ أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة الأولى، ج 435/1.

ذكر الرّازي القولين ورَجَّحَ عود الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ إلى الأربعة الأشهر الحرم ونسبه إلى أكثر أهل العلم قال رحمه الله: «الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ فيه قولان: الأول: وهو قول ابن عباس: أن المراد: فلا تظلموا في الشهور الاثني عشر أنفسكم، والمقصود منع الإنسان من الإقدام على الفساد مطلقاً في جميع العمر. والثاني: وهو قول الأكثرين: أن الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائد إلى الأربعة الحرم قالوا: والسبب فيه ما ذكرنا أن لبعض الأوقات أثراً في زيادة الثواب على الطاعات والعقاب على المحظورات، والدليل على أن هذا القول أولى وجوه: الأول: أن الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائد إلى المذكور السابق فوجب عوده إلى أقرب المذكورات، وما ذاك إلا قوله: ﴿منها أربعة حرم﴾. الثاني: أن الله تعالى خص هذه الأشهر بمزيد الاحترام في آية أخرى وهو قوله: ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ [سورة البقرة، الآية: 197] فهذه الأشياء غير جائزة في غير الحج أيضاً، إلا أنه تعالى أكّد في المنع منها في هذه الأيام تنبيهاً على زيادتها في الشرف»²⁰.

لقد ذكر أبوحيان القولين ورَجَّحَ عود الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ إلى الأربعة الحرم فقال رحمه الله: «الضمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ عائد على ﴿اِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، قاله ابن عباس. والمعنى: لا تجعلوا حلالاً حراماً، ولا حراماً حلالاً كفعل النسيء. ويؤيده كون الظلم منهيًا عنه في كل وقت لا يختص بالأربع الحرم..... ويؤيد عوده على الأربعة الحرم كونها أقرب مذكور، وكون الضمير جاء بلفظ ﴿فِيهِنَّ﴾، ولم يجيء بلفظ "فيها" كما جاء ﴿منها أربعة حرم﴾، لأنه قد تقرر في علم العربية أن الهاء تكون لما زاد على العشرة تعامل في الضمير معاملة الواحدة المؤنثة فتقول: الجنود انكسرت، وأن النون والهاء والنون للعشرة فما دونها إلى الثلاثة تقول: الأجذاع انكسرن، هذا هو الصحيح. وقد يعكس قليلاً فتقول: الجنود انكسرن، والأجذاع انكسرت»²¹.

بعد ذكر أقوال العلماء في تحديد عود الضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ يظهر لي -والله أعلم- أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم وهي: (رجب، ذو القعدة، ذو الحجة، محرم) لأنها أقرب مذكور.

²⁰ تفسير الرّازي، ج 16/43.²¹ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 5/415.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

5/ قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس، الآية: 05].

موضع الشاهد: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾

هل "الهاء" في ﴿وَقَدَرَهُ﴾ تعود إلى القمر وحده؟، أم تعود إلى الشمس والقمر معا؟، يرى الإمام الطبري رحمه الله أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ يحتمل عوده إلى القمر وحده لأنه أقرب مذكور، وبالأهلة يعرف الحساب، ويحتمل عوده إليهما جميعا فذكر أحدهما قد يغني عن الآخر فقال رحمه الله: «﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ فوحده، وقد ذكر "الشمس" و"القمر"، فإن في ذلك وجهين:

أحدهما: أن تكون "الهاء" في قوله: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ للقمر خاصة، لأن بالأهلة يُعرف انقضاء الشهور والسنين، لا بالشمس. والآخر: أن يكون اكتفي بذكر أحدهما عن الآخر، كما قال في موضع آخر: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [سورة التوبة، الآية: 62]»²².

قال الرّازي رحمه الله: «الضمير في قوله: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه لهما، وإنما وحّد الضمير للإيجاز، وإلا فهو في معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [سورة التوبة، الآية: 62] والثاني: أن يكون هذا الضمير راجعا إلى القمر وحده، لأن بسير القمر تعرف الشهور، وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية الأهلة، والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية: 36]»²³.

أما أبو حيان فرجّع عود الضمير إلى القمر وحده فقال رحمه الله: «والظاهر عود الضمير على القمر أي: مسيره منازل، أو قدره ذا منازل، أو قدر له منازل، فحذف وأوصل الفعل، فانصب بحسب هذه التقادير على الظرف أو الحال أو المفعول كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾- [سورة يس، الآية: 39]- وعاد الضمير عليه وحده لأنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب»²⁴.

²² تفسير الطبري، ج 23/15.

²³ تفسير الرّازي، ج 209/17.

²⁴ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 14/6-15.

من خلال ما سبق يمكن أن نرجّح عود الضمير ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ إلى القمر لأنه هو المعتبر شرعا في حساب الزكاة، و رمضان وغيرهما-والله أعلم-.

6/ قال الله تعالى: ﴿فَمَاءٌ آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس، الآية: 83].
موضع الشاهد: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾

يرى الإمام الطبري رحمه الله أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يعود إلى موسى عليه السلام، ولا يعود إلى فرعون، لأنه أقرب مذكور وأن سياق الآيات تتحدث عن موسى عليه السلام فقال رحمه الله: «لأنه لم يجر في هذه الآية ذكرٌ لغير موسى، فلأن تكون "الهاء"، في قوله: ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾، من ذكر موسى لقربها من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون، لبعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليل، من خبرٍ ولا نظير، وبعدُ فإن في قوله: ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾، الدليل الواضح على أن "الهاء" في قوله: ﴿إِلَّا ذرية من قومه﴾، من ذكر موسى، لا من ذكر فرعون، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام، "على خوف منه"، ولم يكن ﴿على خوف من فرعون﴾.... فتأويل الكلام: فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوه»²⁵.

قال ابن عطية: «واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿قومه﴾ فقالت فرقة: هو عائد على موسى، وقالت فرقة: هو عائد على ﴿فِرْعَوْنَ﴾، فمن قال إن العود على موسى قال معنى الآية وصف حال موسى في أوّل مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتیان وشباب أكثرهم أولو آباء كانوا تحت خوف من فرعون وملأ بني إسرائيل»²⁶.

أيّد الإمام الرّازي ما ذهب إليه الإمام الطبري فقال رحمه الله: «وأما الضمير في قوله: ﴿من قومه﴾ فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون، لأن ذكرهما جميعا قد تقدم، والأظهر أنه عائد إلى موسى، لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بني إسرائيل»²⁷.

²⁵ تفسير الطبري، ج 15/165.

²⁶ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ج 3/136.

²⁷ تفسير الرّازي، ج 17/289.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

كذلك أبوحيان فقال رحمه الله: «والظاهر أن الضمير في ﴿قومه﴾ عائد على موسى، وأنه لا يعود على فرعون، لأن موسى هو المحدث عنه في هذه الآية، وهو أقرب مذكور، ولأنه لو كان عائدا على فرعون لم يظهر لفظ فرعون، وكان التركيب على خوف منه»²⁸.
يتبين لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في ﴿قومه﴾ يعود إلى موسى عليه السلام لأنه أقرب مذكور ولم تدع الحاجة إلى عود الضمير إلى الأبعد، كما أنه هو المحدث عنه في الآية كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَلْبِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [سورة يونس، الآية: 80، 81، 82].

7/ قال الله تعالى: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس، الآية: 83].
موضع الشاهد: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾

اختُلف في تحديد عائد ضمير "الهاء" من قوله تعالى: ﴿مَلَئِهِمْ﴾ هل يعود إلى فرعون، أم إلى ذرية بني إسرائيل؟، ذكر الإمام الطبري قولين لأهل العلم فقال رحمه الله: «واختلف أهل العربية فيمن عني "بالهاء" و"الميم" اللتين في قوله: ﴿مَلَئِهِمْ﴾، فقال بعض نحوي البصرة: عني بها الذرية، وكأنه وجه الكلام إلى: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ وملاً الذرية من بني إسرائيل... وقال بعض نحوي أهل الكوفة عني بهما فرعون»²⁹.

ثم رجَّح الإمام الطبري عود الضمير ﴿مَلَئِهِمْ﴾ إلى ذرية بني إسرائيل فقال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: "الهاء والميم" عائدتان³⁰ على "الذرية"، وجهه معنى الكلام إلى أنه: على خوف من فرعون، وملاً الذرية، لأنه كان في ذرية القرن الذين أرسل إليهم موسى من كان أبوه قبطياً وأمه إسرائيلية، فمن كان كذلك منهم، كان مع فرعون على موسى»³¹.

²⁸ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 94/6.

²⁹ تفسير الطبري، ج 166/15.

³⁰ يقصد قوله تعالى: ﴿قومه﴾، ﴿مَلَئِهِمْ﴾.

³¹ تفسير الطبري، ج 167/15.

اختار هذا القول أبوحيان فقال: «والظاهر عود الضمير في قوله: ﴿وَمَلَّيْهِمْ﴾ على الذرية»³².

أما الإمام الفراء فيرى أن ضمير ﴿وَمَلَّيْهِمْ﴾ يعود إلى مضاف محذوف³³ تقدير: على خوف من آل فرعون، غير أن هذا القول استبعده العكبري فقال رحمه الله: «وَهَذَا عِنْدَنَا غَلَطٌ، لِأَنَّ الْمَحْذُوفَ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ ضَمِيرٌ، إِذْ لَوْ جَاَزَ ذَلِكَ لَجَازَ أَنْ تَقُولَ: زَيْدٌ قَامُوا، وَأَنْتَ تُرِيدُ: غِلْمَانُ زَيْدٍ قَامُوا»³⁴.

بعد ذكر أقوال العلماء يظهر لي والله أعلم أن ضمير في ﴿وَمَلَّيْهِمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَّيْهِمْ﴾ يعود إلى ذرية بني إسرائيل و«هُمْ أَوْلَادُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُوسَى، مِنْ طُولِ الزَّمَانِ، وَمَاتَ آبَاؤُهُمْ»³⁵، ولأن السياق يقتضيه، وهذا الذي رجّحه الإمام الطبري. 8/قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود، الآية: 05].

موضع الشاهد: ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في ﴿مِنْهُ﴾ من قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعود إلى الله تعالى، و لا يمكن أن يعود إلى محمد ﷺ لأنه لم يجر ذكره في السياق، فعودة الضمير إلى المذكور أولى من إعادته إلى مقدّر فقال رحمه الله: «﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾، بمعنى: ليستخفوا من الله، وأن "الهاء" في قوله: ﴿مِنْهُ﴾، عائدة على اسم الله، ولم يجر لمحمد [صلی الله عليه وسلم] ذكر قبل، فيجعل من ذكره ﷺ وهي في سياق الخبر عن الله، فإذا كان ذلك كذلك، كانت بأن تكون من ذكر الله أولى، وإذا صحّ أن ذلك كذلك، كان معلوماً أنهم لم يحدّثوا أنفسهم أنهم يستخفون من الله، إلا بجهلهم به، فأخبرهم جل ثناؤه أنه لا يخفى عليه سرّ أمورهم وعلايتها على أي حال كانوا، تغشّوا بالثياب، أو أظهروا بالبراز»³⁶.

³² أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 95/6.

³³ معاني القرآن، للفراء، ج 477/1.

³⁴ التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج 683/2.

³⁵ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 287/4.

³⁶ تفسير الطبري، ج 238/15.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

ورجَّح ابن عطية عود الضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ إلى الله فقال: «الضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ عائد على الله تعالى، هذا هو الأفصح الأجزل في المعنى، وعلى بعض التأويلات يمكن أن يعود على محمد ﷺ»³⁷.

ذكر أبوحيان أنه يحتمل عود الضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ إلى محمد ﷺ، معتمدا على سبب نزول الآية فقال: «ويظهر من بعض أسباب النزول أنه عائد على الرسول ﷺ»³⁸.
رجَّح السمين الحلبي أن ضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود إلى محمد ﷺ فقال: «الضمير في ﴿ مِنْهُ ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه عائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهرٌ على تعلُّق اللام بـ﴿ يَنْتَوْنَ ﴾. والثاني: أنه عائدٌ على الله تعالى»³⁹.

يظهر لي -والله أعلم- أن الضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود إلى الله تعالى، لأن سياق المعنى يحتمله، وعود الضمير إلى المحدث عنه أولى من إعادته إلى مقدِّر ما لم يدل دليل على عوده إلى مُقدِّر، وهو اختيار عامة المفسرين، قال ابن كثير: «وَعَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى اللَّهِ أَوْلَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾»⁴⁰، قال محمد الأمين الشنقيطي: «الضمير في قَوْلِهِ ﴿ مِنْهُ ﴾ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَظْهَرِ الْقَوْلَيْنِ»⁴¹، وأما عوده إلى محمد ﷺ فبعيد لأنه لم يجر لمحمد ﷺ ذكر في السياق.

9/ قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود، الآية: 92].

موضع الشاهد: ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ ﴾

يرى الإمام الطبري رحمه الله أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ ﴾ تعود إلى الله تعالى التي كما في قوله تعالى: ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ لأنه أقرب مذكور، فقال الإمام الطبري:

³⁷ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3/151.

³⁸ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج6/123.

³⁹ السمين الحلبي، الدر المنصون في علوم الكتاب المكنون، ج6/288.

⁴⁰ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4/305.

⁴¹ محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت، لبنان 1415هـ-1995م، ج2/173.

«فكانت "الهاء" في قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ بأن تكون من ذكر الله، لقرب جوارها منه، أشبه وأولى»⁴².

قال أبو حيان: «﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أن الضمير عائد على الله تعالى أي: ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به»⁴³.

قال السمين الحلبي: «والضمير في ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ يعود على الله: لأنهم يجهلون صفاته، فجعلوه أي: جعلوا أوامره ظهرياً، أي: منبذةً وراء ظهورهم.... وقيل: الضمير يعود على العصيان، أي: واتخذتم العصيان عوناً على عداوتي، فالظهريُّ على هذا بمعنى المعين المَقْوِي»⁴⁴.

وقيل الضمير يعود إلى «الشرع الذي جاء شعيب عليه السلام»⁴⁵.

من خلال ما سبق يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ يعود إلى الله تعالى بناءً قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور أولى من إعادته إلى غيره، إلا إذا دل دليلٌ يصرفه إلى الأبعد.

10/ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف، الآية: 21].

موضع الشاهد: ﴿والله غالب على أمره﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿والله غالب على أمره﴾ يعود إلى يوسف عليه السلام، فمعنى الكلام: أن الله يتولى أمر يوسف عليه السلام ولا يكله إلى غيره قال رحمه الله: «قوله: ﴿والله غالب على أمره﴾ يقول تعالى ذكره: والله مستولٍ على أمر يوسف، يسوسه ويدبّره ويحوطه، و"الهاء" في قوله: ﴿على أمره﴾ عائدة على يوسف»⁴⁶.

⁴² تفسير الطبري، ج 15/462.

⁴³ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 6/201-202.

⁴⁴ السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج 6/379.

⁴⁵ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 6/202.

⁴⁶ تفسير الطبري، ج 15/20.

— "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-
من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

ذكر أبوحيان احتمال عود الضمير إلى الله تعالى فقال رحمه: «والضمير في ﴿عَلَى أَمْرِهِ﴾ الظاهر عوده على الله»⁴⁷، وهذا ما رجّحه الطاهر بن عاشور من المعاصرين فقال رحمه الله: «وَضَمِيرُ ﴿أَمْرِهِ﴾ عَائِدٌ لِاسْمِ الْجَلَالَةِ»⁴⁸، فيكون المعنى: بأن الله «غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه»⁴⁹.

أما السيوطي ذكر القولين في تحديد عود الضمير ولم يرجّح فقال رحمه الله: «﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾: في عودة الضمير وجهان: أحدهما: أن يعود على الله. والمعنى: أنه يفعل ما يشاء لا رادّ لحكمه. والثاني: أنه يعود على يوسف، أي: يدبّر الله أمره بحفظه وكرامته»⁵⁰.
يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في ﴿أَمْرِهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يعود إلى الله تعالى لأنه أقرب مذكور، ويجوز عوده إلى يوسف عليه السلام، لأن الله يفعل ما يشاء ولا رادّ لحكمه، فيدخل في ذلك ما قضى سبحانه في حفظ يوسف عليه السلام.

11/ قال الله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۝﴾ [الرعد، الآية: 9-10-11].
موضع الشاهد: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ ۝﴾⁵¹.

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ﴾ تعود إلى ﴿مَنْ﴾ التي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ لأنه أقرب مذكور فقال الإمام الطبري رحمه الله: «وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، قول من قال: "الهاء"، في قوله: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ﴾ من

⁴⁷ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 255/6.

⁴⁸ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر: 1984م، ج 247/12.

⁴⁹ تفسير الرّازي، ج 436/18.

⁵⁰ جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى 1408هـ-1988م، ج 296/3.

⁵¹ المعقبات هي: «التي تعتقب على العبد، وذلك أن ملائكة الليل إذا صعدت بالنهار أعقبها ملائكة النهار، فإذا انقضى النهار صعدت ملائكة النهار ثم أعقبها ملائكة الليل» ينظر: تفسير ابن جرير الطبري، ج 369/16.

ذكر ﴿مَنْ﴾ التي في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مستخف بالليل﴾ "وَأَنَّ المعقبات من بين يديه ومن خلفه"، هي حرسه وجلالوته⁵² 53

ثم بين الإمام الطبري سبب إعادة الضمير إلى ﴿مَنْ﴾ التي في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مستخف بالليل﴾ دون غيره لأنه أقرب مذكور فقال: «وإنما قلنا: "ذلك أولى التأويلين بالصواب"، لأن قوله: ﴿لَهُ معقبات﴾ أقرب إلى قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مستخف بالليل﴾ منه إلى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾، فهي لقرينها منه أولى بأن تكون من ذكره»⁵⁴.

وقال أيضاً: «وإذا كان ذلك، فكونها عائدة على ﴿مَنْ﴾ التي في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مستخف بالليل﴾ أقرب، لأنه قبلها والخبر بعدها عنه، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم، أيها الناس من أسر القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخف بفسقه وريبته في ظلمة الليل، وسارِبٌ يذهب ويحيى في ضوء النهار ممتنعاً بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدَّ الله عليه، وذلك قوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾»⁵⁵.

يرى أبوحيان عود ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿لَهُ معقبات﴾ إلى ﴿مَنْ﴾ المكررة التي في قوله تعالى: ﴿مَنْ أسر القول وَمَنْ جهر به وَمَنْ هُوَ مستخف بالليل وسارِبٌ بالنهار﴾ [الرعد: 10] فقال رحمه الله: «والظاهر عود الضمير في ﴿لَهُ﴾ على ﴿مَنْ﴾ كأنه قيل لمن أسر، ومن جهر، ومن استخفى، ومن سرب: مُعقبات»⁵⁶، يوضح أكثر أبوحيان فيقول: «والقول الأول في عود الضمير هو الأول الذي ينبغي أن يحمل عليه وعليه يُفسَّر. ويقول: لما تقدم أن: ﴿مَنْ أسرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾، ومن استخفى بالليل وسرب بالنهار، مستو في علم الله تعالى لا يخفى عليه من أحوالهم شيء»⁵⁷.

ذكر السمين الحلبي أربعة أقوال في احتمال عود الضمير ﴿لَهُ﴾ فقال رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿لَهُ﴾ الضمير فيه أربعة أوجه، أحدها: أنه عائدٌ على ﴿مَنْ﴾ المكررة، أي: لِمَنْ

⁵² جلاوزته: جمع الجلاوز: الشُرطِيُّ، وَجَلَّوْزَتُهُ: خَفَّتُهُ فِي دَهَابِهِ وَمَجِيئِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْعَامِلِ. ينظر: محمد بن أحمد بن الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م، ج 325/10.

⁵³ تفسير الطبري، ج 374/16.

⁵⁴ المصدر نفسه، ج 374/16.

⁵⁵ تفسير الطبري، ج 382/16.

⁵⁶ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 259/6.

⁵⁷ المصدر نفسه، ج 260/6.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

أَسَرَ الْقَوْلَ وَلَمَن جَهَرَ بِهِ وَلَمَن اسْتَخْفَى وَسَرَ مُعَقَّبَاتٍ، أي: جماعة من الملائكة يَعْقُبُ بعضهم بعضاً. الثاني: أنه يعود على «مَن» الأخيرة⁵⁸ ... الثالث: أَنَّ الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود على الله تعالى ذِكْرُهُ، وفي «يَحْفَظُونَهُ» للعبد، أي: لله ملائكةٌ يحفظون العبدَ من الآفات، ويحفظون عليه أعماله، قاله الحسن. الرابع: عَوْدُ الضميرين على النبي عليه السلام، وإن لم يَجْرَ له ذِكْرٌ قَرِيبٌ، ولتقدّم ما يُشعر به في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ﴾ [الرعد:7]⁵⁹.

إن القول بعودة الضمير ﴿لَهُ﴾ إلى محمد ﷺ بعيد يقول الإمام الطبري: «ولم يجر له- محمد ﷺ- في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذكراً، إلا أن يكون أراد أن يردّها على قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ لَهُ مَعْقَبَاتٌ﴾ فإن كان ذلك، فذلك بعيدٌ، لما بينهما من الآيات بغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ»⁶⁰.

يظهر لي من خلال ما سبق ذكره -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ﴾ يعود إلى ﴿مَن﴾ التي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ لأنه أقرب مذكور، وهو الذي رجّحه الإمام الطبري رحمه الله.

12/ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ۖ فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمُ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ [الحجر، الآية: 78-79].

موضع الشاهد: ﴿إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

يرى الإمام الطبري أن الضمير ﴿إِنَّهُمَا﴾ يعود إلى مدينة أصحاب الأيكة-قوم شعيب-، وقوم لوط، فقال رحمه الله: «وقوله ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: وإن مدينة أصحاب الأيكة، ومدينة قوم لوط، و"الهاء والميم" في قوله ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ من ذكر المدينتين، ﴿لَبِإِمَامٍ﴾ يقول: لِبَطْرِيقٍ يَأْتُمُونَ به في سفرهم ويمتدون به»⁶¹، وسُمِّي الطريقُ إِمَامًا «لأن المسافر يَأْتُم به، حتى يصير إلى الموضع الذي يريد»⁶².

⁵⁸ أي: قوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ [سورة الرعد، الآية: 10].

⁵⁹ السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج 26/7.

⁶⁰ تفسير الطبري، ج 382/16.

⁶¹ المصدر نفسه، ج 125/17.

⁶² ابن قتيبة الدينوري، غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، السنة: 1398 هـ - 1978 م، ص 239.

يقول ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ في المكنى عنهما قولان: أحدهما: أنهما الأيكة ومدينة قوم لوط، قاله الأكثرون. والثاني: لوط وشعيب»⁶³.

يقول الرّازي: «وقوله- تعالى:- ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ فيه قولان: القول الأول: المراد قرى قوم لوط عليه السلام، والأيكة. والقول الثاني: الضمير للأيكة، ومدين، لأن شعيبا عليه السلام كان مبعوثا إليهما فلما ذكر "الأيكة" دل بذكرها على "مدين" فجاء بضميرهما»⁶⁴

ذكر أبو حيان احتمالات عود الضمير ﴿إِنَّهُمَا﴾ ورجّح عوده إلى قريتي قوم شعيب، وقوم لوط، فقال رحمه الله: «والظاهر قول الجمهور من أن الضمير في ﴿إِنَّهُمَا﴾ عائد على قريتي: قوم لوط، وقوم شعيب. أي: على أنهما ممرّ السّائلة. وقيل: يعود على شعيب، ولوط، أي: ﴿وَإِنَّهُمَا لِيَأْمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريق من الحق واضح، والإمام الطريق... وقيل: يعود على أصحاب الأيكة، ومدين، لأنّه مرسلّ إليهما، فدلّ ذكر أحدهما على الآخر، فعاد الضمير إليهما»⁶⁵.

ورجّح السمين الحلبي قول الإمام الطبري، فقال رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لِيَأْمَامٍ﴾ في ضمير التثنية أقوال، أرّجحها: عوّده على قريتي قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب لتقدّمهما ذكراً. وقيل: يعود على لوط وشعيب، وشعيب لم يجز له ذكر، ولكن دلّ عليه ذكر قومه. وقيل: يعود على الخبرين: خبر إهلاك قوم لوط، وخبر إهلاك قوم شعيب. وقيل: يعود على أصحاب الأيكة وأصحاب مدين؛ لأنه مرسلّ إليهما فذكر أحدهما مُشعرٌ بالآخر»⁶⁶.

يتبين لي والله أعلم أن الضمير ﴿إِنَّهُمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَأْمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الحجر، الآية: 78-79]، يعود إلى قريتي قوم لوط عليه السلام، ومدينة أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وهذا الذي رجّحه الإمام الطبري رحمه الله، فيكون المعنى: إن قريتي قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة لطريق واضح لمن يمرّ في أسفاره فيعتبر بهما، وكيف أنّ الله أهلكهم، وجعلهم عبرة للعالمين.

⁶³ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 2/540.

⁶⁴ تفسير الرّازي، ج 19/157.

⁶⁵ أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 6/491.

⁶⁶ السمين الحلبي، الدر المنثور في علوم الكتاب المكنون، ج 7/178.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

13/ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل، الآية: 69].

موضع الشاهد: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾

ذكر الإمام الطبري قولين لأهل العلم في عود ضمير ﴿فِيهِ﴾، الأول عوده إلى القرآن، والثاني: عوده إلى العسل، ورجح رحمه الله القول الأخير وهو العسل، لأنه هو المحدث عنه في السياق فقال رحمه الله: «وقوله ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ اختلف أهل التأويل فيما عادت عليه "الهاء" التي في قوله: ﴿فِيهِ﴾، فقال بعضهم: عادت على القرآن..... وقال آخرون: بل أريد بها العسل... وهذا القول، أعني قول قتادة، أولى بتأويل الآية، لأن قوله: ﴿فِيهِ﴾ في سياق الخبر عن العسل فأن تكون "الهاء" من ذكر العسل، إذ كانت في سياق الخبر عنه أولى من غيره»⁶⁷.

ذكر الرّازي أن ضمير "الهاء" ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى العسل لأنه أقرب مذكور وضعف من قال يعود إلى القرآن فقال رحمه الله: «قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وفيه قولان: القول الأول: وهو الصحيح أنه صفة للعسل..... والقول الثاني: وهو قول "مجاهد" أن المراد: أن القرآن شفاء للناس.... واعلم أن هذا القول ضعيف... الضمير في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وما ذاك إلا قوله: ﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ وأما الحكم بعود هذا الضمير إلى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق، فهو غير مناسب»⁶⁸.
قال العكبري رحمه الله: «﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾: يَعُودُ عَلَى الشَّرَابِ، وَقِيلَ: عَلَى الْقُرْآنِ»⁶⁹.

يظهر لي -والله أعلم- أن الضمير "الهاء" في ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ يعود إلى العسل وحده لأنه هو المذكور في السياق ولا ينبغي العدول عنه إلى غيره إلا بدليل، وبناءً على قاعدة عود الضمير إلى المحدث عنه أولى من إعادته إلى مقدر، قال ابن العربي المالكي رحمه الله: «فَإِنَّ مَسَاقَ الْكَلَامِ كُلِّهِ لِلْعَسَلِ، لَيْسَ لِلْقُرْآنِ فِيهِ ذِكْرٌ؛ وَكَيْفَ يَرْجِعُ ضَمِيرٌ فِي كَلَامٍ إِلَى مَا لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ مِنْهُ؟ وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا يُرَاعَى مَسَاقُ الْكَلَامِ وَمَنْحَى الْقَوْلِ»⁷⁰.

⁶⁷ تفسير الطبري، ج 17/249-250.

⁶⁸ تفسير الرّازي، ج 20/238-239.

⁶⁹ أبو البقاء عبد الله العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج 2/802.

⁷⁰ ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط. 3، 1424هـ-2003م، ج 3/138.

14/ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَتَرَفَّ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الاسراء، الآية: 33].
موضع الشاهد: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾

ذكر الإمام الطبري قولين في احتمال عود ضمير "الهاء" ﴿إِنَّهُ﴾ فقال رحمه الله: «وأما قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيمن عُني بالهاء التي في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ وعلى ما هي عائدة، فقال بعضهم: هي عائدة على وليّ المقتول، وهو المعنيّ بها، وهو المنصور على القاتل..... وقال آخرون: عُني بها دم المقتول، وقالوا: معنى الكلام: إن دم القاتل كان منصوراً على القاتل»⁷¹.

ورجّح عوده إلى الوليّ لأنه أقرب مذكور فقال رحمه الله: «وأشبه ذلك بالصواب عندي، قول من قال: عُني بها الوليّ، وعليه عادت، لأنه هو المظلوم، ووليه المقتول، وهي إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول، وهو المنصور أيضاً، لأن الله جلّ ثناؤه قضى في كتابه المنزل، أنه سلّطه على قاتل وليه، وحكّمه فيه، بأن جعل إليه قتله إن شاء، واستبقاءه على الدية إن أحبّ. والعفو عنه إن رأى، وكفى بذلك نصرة له من الله جلّ ثناؤه، فلذلك قلنا: هو المعنيّ بـ"الهاء" التي في قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾»⁷².

ذكر ابن الجوزي أربعة أقوال في احتمال عود ضمير "الهاء" في ﴿إِنَّهُ﴾ فقال رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أي: مُعاناً عليه. وفي "هاء" الكناية أربعة أقوال: أحدها: أنها ترجع إلى الولي، فالمعنى: إنه كان منصوراً بتمكينه من القود، قاله قتادة، والجمهور. والثاني: أنها ترجع إلى المقتول، فالمعنى: إنه كان منصوراً بقتل قاتله، قاله مجاهد. والثالث: أنها ترجع إلى الدم، فالمعنى:

إن دم المقتول كان منصوراً، أي: مطلوباً به. والرابع: أنها ترجع إلى القتل⁷³، ذكر القولين "الفرأء"^{74 75}.

⁷¹ تفسير الطبري، ج 443/17.

⁷² المصدر نفسه، ج 443/17.

⁷³ استبعد ابن عطية هذا القول فقال: «وهذا ضعيف بعيد المقصد». ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 453/3.

⁷⁴ ينظر: قول الفرأء في كتابه: معاني القرآن، ج 123/2.

⁷⁵ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 23/3.

_____ "هاء" الضمير الغائب وأثرها في توجيه معاني القرآن عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره-

من سورة الأنعام إلى الإسراء أنموذجا-

رَجَّحَ ابن عطية عود ضمير "الهاء" إلى المقتول فقال رحمه الله: «والضمير في قوله ﴿إِنَّهُ﴾ عائد على الولي، وقيل: على المقتول، وهو عندي أرجح الأقوال، لأنه المظلوم»⁷⁵.
لقد ذكر العكبري ستة أقوال في تحديد عائد الضمير ﴿إِنَّهُ﴾ فقال رحمه الله :
« ﴿إِنَّهُ﴾ : في "الهَاء" سِتَّةُ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى الْوَلِيِّ . وَالثَّانِي : إِلَى الْمُقْتُولِ . وَالثَّالِثُ : إِلَى الدِّمِّ . وَالرَّابِعُ : إِلَى الْقَتْلِ . وَالخَامِسُ : إِلَى الْحَقِّ . وَالسَّادِسُ : إِلَى الْقَاتِلِ أَيْ : إِذَا قُتِلَ سَقَطَ عَنْهُ عِقَابُ الْقَتْلِ فِي الْآخِرَةِ »⁷⁶.

يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود إلى وليِّ المقتول لأنه أقرب مذكور كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾، وهذا الذي رجَّحه الإمام الطبري رحمه الله .

الخاتمة :

لقد تناولنا في هذا البحث موضوع عائد ضمير "هاء" الغائب وأثرها في توجيه المعنى عند ابن جرير الطبري -رحمه الله- ظهر لنا أنَّ التفسير يختلف باختلاف عائد الضمير، ومن خلال عرض هذا البحث ظهرت لي بعض النتائج وهي كالآتي:

1/ نلاحظ أنَّ الإمام الطبري رحمه الله اعتمد في تحديد الضمير الغائب بناءً على قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور.

2/ اعتمد الإمام الطبري على قاعدة عود الضمير إلى المذكور أولى من إعادته إلى مُقَدَّرٍ، في تعيين عائد الضمير.

3/ إنَّ مِنْ أسباب اختلاف المفسرين في توجيه معاني القرآن، اختلافهم في تحديد عود الضمير، فمنهم مَنْ يُعيده إلى أقرب مذكورٍ، ومنهم مَنْ يُعيده إلى مُقَدَّرٍ، ومنهم مَنْ يُعيده إلى أبعد مذكورٍ.

4/ إعتناء المفسرين في تعيين عائد الضمير، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنَّه يدل على أهميته وأثره الكبير في تحديد معاني القرآن.

5/ تُعتبر دلالة السياق من أهم المرجِّحات التي يستعان بها في تعيين مرجع الضمير.

⁷⁵ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3/453.

⁷⁶ العكبري، التبيان في إعراب القرآن، ج2/820.

المصادر والمراجع:

- * القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- 01- ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط.3، 1424هـ-2003م.
- 02- ابن قتيبة الدينوري، غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، 1398 هـ- 1978م.
- 03- أبو البقاء عبد الله العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، د.ت.
- 04- أبو العباس شهاب الدين، المعروف بالسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق-سوريا، د.ت.
- 05- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط.2، 1420هـ- 1999م.
- 06- أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط.1، 1422هـ.
- 07- أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط.2، د.ت.
- 08- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1420هـ.
- 09- أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط.1، د.ت..
- 10- أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط.1، 1376هـ-1957م.
- 11- أبو عبد الله محمد بن عمر، الملقب بفخر الدين الرّازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط.3، 1420هـ.
- 12- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط.1، د.ت.
- 13- التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء عبد الله العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، د.ت.
- 14- جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط.1، 1408هـ-1988م.
- 15- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت-لبنان، 1415هـ-1995م.
- 16- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- 17- محمد بن أحمد بن الأزهر، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط.1، 2001م.